في سنة ١٩٢٩ عين بكلية الطب استاذ انجليزي للطب الشرعي يدعى جليستر .. وكان شابا انيقا رقيقا ، تعلم المحاماة وبرع فيها ثم طب - اي تعلم الطب - وكان أبوه استاذا للطب الشرعي بجامعة جلاسجو ، فانتقلت منه العدوى اليه ..

وعندما جاء الى مصر استهوى تلاميذه بحسن الالقاء ، فاكتظت دروسه بالطلاب ..

كان الاستاذ جليستر ذات يوم يلقي درسا عن حوادث الطريق ، وكان درسا شائقا ولكنه مشئوم فقد جاء على لسان الاستاذ فيه :

« اذا رأيت حادثا بشع في الطريق فاياك ان تتطوع لاسعاف المصاب !! »

ولما كان هذا مناقضا لكل قواعد المروءة والشهامة كما كنا نعرفها حينئذ رنت الكلمة في المدرج رنة الزندقة في هيكل ، وهمهم الطلبة ودمدموا ، واصبح المدرج كسوق عكاظ.

وصبر الاستاذ حتى عاد الهدوء .. واستأنف كأن لم يحدث شيء فقال .. « أن للاسعاف رجاله ، وهم معروفون للجمهور بكسيهم وانت مجهول ، وكل انسان في موطن الحادث طبيب ، والطبيب الحقيقي من بينهم هو أشدهم عرضة لما يكره ، وقد يحاسب على اخطاء يرتكبها سواه وقد يضطر الى

الخطأ اضطرارا وهو يريد الصواب .. اياك ان تسعف مصابا فى الطريق الا بامر — وفى حماية — سلطة شرعية »

ولكن هذا الايضاح لم يضمد جرح الشهامة العربية الاصيلة فى نفوس الطلاب ، فخرجوا من المدرج يتهامسون ، وينظرون للاستاذ نظرات كاوية لم يلطف من حدتها الا قرب الامتحان !!

***

خرجت من عملى قرب منتصف الليل بعد انفجار قذيفة القيت على محل شيكوريل من مصدر لم يعرف ، ولم اكن سمعت صفارة الانذار ، وكانت تحتى سيارة مصابة بسعال مزمن وروماتزم فى الركب ، وهبوط فى القلب ، وقد بلغ بها الكبر ، فسرت بها فى طريقى الى البيت وكان يمر على شيكوريل ، فتلقتنى اصوات من كل جانب تصيح : « اطفىء النور .. اطفىء النور ! » فتلفت حولى فاذا الشارع تتلألأ فيه مصابيح الكهرباء واستبعدت ان تكون هناك غارة ، وحسدت مصابيح سيارتى العشواء التى استطاعت ان تكشف فى اعين الصائحين كل هذه الاضواء ، ولكنى مع ذلك سمعت واطعت واطفأت المصابيح ..

ولم اتقدم فى الطريق غير قليل حتى وجدتنى امام شيكوريل واذا جمع من الناس يستوقفنى فوقفت ، واذا فى وسطهم سيدة مخضبة بالدم ، فسألنى احدهم ان كنت استطيع ان احمل الجريحة الى الاسعاف ؟

وفى مثل لمح البرق ومضت فى ذهنى وصية الاستاذ جليستر فقال لى عقلى « الفرار .. الفرار » وقالت الشهامة : « يارجل ! .. ليس هذا اسعافا ، ولكنه نقل الى الاسعاف ، والنقل لم يرد عنه نص فى وصية الاستاذ ! » . ولا اكتم القارىء انى خفت ان رفضت ان يقال عنى صهيونى ! .. والليل لا صاحب له . فأجبت السائل : « نعم .. بكل تاكيد استطيع ! »

وجيء بالسيدة فكومة بجوارى وهى تبكى ، وتولول ، وتقرأ آية الكرسى بين الزفرات والدموع ولم اكد ادير السيارة فى اتجاه الاسعاف حتى سمعت طلقات المدافع المضادة للطائرات، تدمدم فى الفضاء ، ورايت الانوار الكشافة ترقص بجنون العفاريت فى السماء ، وادركت ان ثمة غارة ولكن مع الحمل الذى احمله اصبح التردد بين السير والوقوف جريمة . وكان صوت السيدة وهى تقرأ آية الكرسى يفنى بالتدريج وينهار ، وحسبتها مشرفة على الغيبوبة من اثر النزف فلم اصغ لصياح شرطى المرور فى مفترق طريقى فؤاد الاول والملكة ، ولم ابال بكراسته التى خرجت من جيبه غاضبة لتسجل رقم السيارة المسكينة التى كانت تنوء تحت حملها المزدوج . ان المناقشة مع الشرطى ، وايضاح الامر له كان حريا ان ينقذنى من مخالفة ، بل من جنحة عسكرية ، ولكنه فى اوقت نفسه قد يقضى على الرمق الاخير فى حياة انسان . .

قال لى عقلى : قف . !

وقالت الشهامة : سر . !

فسرت وامرى الى الله

* * *

اوصلت المصابة والتمست ملاذا من الغارة فى ساحة الاسعاف فلما كف اطلاق النار ، رايت سيارات تسير فى الطريق ، فقلت اذهب الى شرطى المرور فاستغفره وارضاه ، واستحلفه بالشريط الذى على كتفه ان يعفو عنى

ولم اكد اقترب من مفترق الطريق حتى رايته موسدا امامى ، وكنت تحت مصباح موقد ، فحانت منى التفاتة الى المقعد الذى كانت تشغله الجريحة فاذا هو ملوث ببقع حمراء واسعة واذا تحته حذاء يكاد يكون عائما كالزورق الفضى فى مستنقع

من الدم المتجمد ، وكأنه تحفة معروضة فى السوق على قطعة من القطيفة الحمراء . .

وقلت لا حول ولا قوة الا بالله . . .

وأردت ان اعود الى الاسعاف لارد الحذاء الى صاحبته فاذا سيارة من خلفى تزحم الطريق! . .

وسولت لى نفسى ان التمس ركنا مظلما فالقى الحذاء فيه ، وما اظن صاحبته — ان قدرت لها السلامة — ستحرص على هذه الذكرى التعسة لحادث مشئوم .

وما هممت ان انفصل حتى رايت القمر ينعكس وجهه الفضى على مستنقع الدم اللامع وكأنه يضحك ! . .

ورايت فى الوقت ذاته افواجا من الناس تتقاطر على الرصيف هاتفة صاخبة ، تحسب مصابيح النور الموقدة بالحجر لتحول بينها وبين ارشاد الطائرات المغيرة الى الاهداف . .

وخفت ان انا رميت الحذاء ان يحسبوه قنبلة . . وان تركته ووقعت عليه عين ، فقد يحسبوننى قاتلا . . .

والويل لى على الحالين . .

وانطلقت صفارة الامان فى هذه اللحظة ، فانقذتنى من هذه الورطة ، وادرت محرك السيارة وانا اتنفس الصعداء ، فلم يدر . .

ترى ماذا بقى فى الجراب من ضرائب الشهامة ؟ . .

وانطلقت ابواق السيارات من خلفى تزأر وتصيح . . .

وجاء سائق يعيننى على ادارة السيارة ، فاسلمتها له وكل همى أن اغطى الحذاء حتى لا يراه ، ولطف الله فدار المحرك ولم ير السائق شيئا ، ومسحت العرق المتصبب من جبينى واطلقت العنان للسيارة العجوز . .

وقال لى عقلى وانا بباب البيت ايقظ البواب وايقظ الاولاد ، وارو القصة للجميع ، واتق المضاعفات

فقالت الشهامة : « حرام .. دع النائم نائما والصباح رباح !

وافقت فى الصباح فاذا فى ساحة البيت هرج ومرج ، واذا البيت كله واجم من حولى ، واذا الجباه مقطبة ، والدموع تترقرق فى العيون ، والسكون يطبق على البيت كسكون القبور

— ماذا حدث ؟

— الحــذاء

كان النوم فى عينى فقلت :

— اى حذاء ؟

— القتيلة !

وطار النوم من عينى تماما ، وتذكرت المأساة وعدت اقول لا حول ولا قوة الا بالله ورحت اشرح وافسر ..

واعدت الشرح والتفسير للبواب وللجمع الحاشد الذى وقف بباب البيت يتطلع الى رؤية « لاندروا » السفاح ..

ولكن لم يبد ان احدا صدقنى فظلت العيون ترمقنى بنظرات افتك من وقع السهام

وذهبت بالحذاء الى نقطة البوليس

فقالوا ما دمت لا تعرف اسم السيدة فمحال ان تاخذ الحذاء .

قلت : هبونى قتلتها وأنا أسلم اليكم نفسى

فكان الجواب اذهب الى قسم الازبكية الذى وقع الحادث فيه !

وقال لى عقلى ضع الحذاء فى متحف قسم الصحة كشاهد على ما تفعل الشهامة فى بعض الاحيان فتريح وتستريح

وارادت الشهامة ان تنطق ، فأهويت على راسها بالحذاء !